

أدبنا الجديد

ومظ. منه الاتصال بثقافتنا التقليدية

للأستاذ اسماعيل مظهر

الحقائق التي أحاطت بها ، والحقائق التي أحاطت بأدبنا الحديث على وجه عام . ذلك بأن شباباً يعجز عن تكوين فكرة جديدة في الأدب ، أو تقعد همته عن خلق تصور جديد في الفن ، إنما هو شباب يندرنأ من الآن بأن أدبنا سوف يبقى جيلاً آخر في داخل الحدود التي رسمها للأدب أولئك الذين ساهموا الشباب أدباء الشيوخ

وإني لأمل ألا يتبادر إلى الشيوخ من أدبائنا أني أعني بذلك أن أدبهم لم يؤد لأهل هذا الجيل شيئاً جديداً ، أو أن وقوف الأدب عند الحد الذي بلغوا إليه دليل على جمود الأدب ، وإنما أعني بذلك أن وقوف حركة الأدب ، وركود التصور الفني عند حد بلغه شيوخنا من غير أن يعقب عليهم الشباب بأدب جديد له صبغة خاصة وفن له تصورات ذات طابع مستقل عن طابع الفن الذي عرفناه ، دليل قاطع على أحد أمرين : إما أن الشباب عاجز عن الابتكار ، وإما أن الأدب الذي روج له الشيوخ أدب غير منتج ؛ وكلا الأمرين يحفزنا إلى أن نبحث الأمر من وجهيه : علاقة أدب الجيل الجديد بأدب الجيل السابق ، وعلاقة الأديين بالنظرية التي تروج لها : نظرية أن الأدب الثابت والفن الأصيل إنما يجب أن يتجه دائماً إلى إحكام الرابطة بين الصور التي يتشكل فيها ، والصور التي قامت عليها ثقافتنا التقليدية

ولقد عبرت عما أعني بالثقافة التقليدية في المقالات التي نشرتها لي (الرسالة) بعنوان « التعليم والحالة الاجتماعية في مصر » ، وصورت على قدر ما أتيسر لي مجمل ما أدركت من هذه النظرية . ولقد عرفت الثقافة التقليدية بأنها مجموعة الحالات والملابس التي ينشأ شعب من الشعوب مكتنفاً بها من حيث طبيعة الأرض والاقليم ، وما يتطلب ذلك من المكوف على فن خاص من فنون الحياة ؛ وبمعنى أوسع تدل الثقافة التقليدية على العناصر التي ورثها شعب من الشعوب على مدى الزمان من طريق التأثير الطبيعي بالبيئة والمحيط ، كما تدل على مجمل ما ثبت في عقليته باللقاح السلالي من عادات وأساطير وعلوم وآداب نشأت بنشأته في مربه الأصيل . وعلى الجملة نقول إن الثقافة التقليدية لشعب من الشعوب إنما هي في الواقع جماع ما يرث من صفات حيوية ، ومعتقدات ، وفنون عن أسلافه الأولين

ركدت الحركة الأدبية في مصر ركوداً أشبه بأن يكون سباتاً عميقاً . ولقد حدث هذا الركود إثر نشاط عظيم في الانتاج والنقد والترجمة ، وإثر شعور قوى بأن الشباب أحق بأن يترعموا حركة الأدب ، وأن يترفعوا الزعامة الأدبية من أدباء الشيوخ . ولقد اصطلفت حركة الشباب بألوان مختلفة ، مهما يكن فيها من مظاهر التطرف حيناً ، ومن مظاهر التفريط حيناً آخر ، فإنها دلت في بعض أطوارها على حيوية قوية ، وطموح ، وتطلع إلى إحياء ما قيل إنه أدب جديد . وما من شك في أن حدوث هذا الركود عقيب ما أبدى الشباب من نشاط ، ظاهرة جديدة بالبحث ، خليفة بأن تدرس من نواح مختلفة ، وأن تحلل في ضوء

الأول ، واقتربت لتسليمة الجامعة أن يقص كل منهم قصة ، وأن يختتم واحد منهم بإنشاد أنشودة ؛ فوافق الجميع متحمسين ؛ واستثنى الجامعة من أيام الأسبوع اثنين ، يوم الجمعة ، ويوم السبت ، وخصصا للراحة والتجمل والصلاة ؛ وعلى ذلك أصبحت أيام القصص عشرة خلال اسبوعين ، وفي كل يوم تقص عشر قصص ، فالجموع مائة قصة ؛ هي محتويات مجموعة بوكاشيو الشهيرة ، وهي التي يسميها « ديكامروني » Decamerone وهي كلمة مؤلفة من مقطوعين يونانيين ومعناها « الأيام العشرة »

هذه هو التمهيد الذي يقدم به بوكاشيو لمجموعته ، وهو تمهيد يمتاز ببساطته وطرافته ، ويدل بكثير من روح العصر ؛ لقد كان المجتمع الذي كتب فيه بوكاشيو قصصه يعيش من يومه إلى غده ؛ وكان بوكاشيو نفسه يجوز هذه الحياة ؛ وكان يملأ هذا الفراغ المتصدع بالتجوال في عوالم الخيال المتع ، وكان يرى أن يقدم ثمرة هذا التجوال إلى إخوانه في المجتمع ، أولئك الذين يرون أشباح الفناء ماثلة في كل آونة وكل مكان

(للبحث بقية)

محمد عبد الله عثمان

قد ينكر علينا بعض الذين يودون إرضاء ناحية المزة في أنفسهم شيئاً مما تقرر في هذا البحث ؛ غير أني أريد لهؤلاء أن يكونوا أكثر تشاؤماً مما هم ، ذلك بأن يثبتنا الأدبية قد تولاهما منذ أول نشأتها روح رمت بها في أحضان التشاؤم الرير ، ولم يسعدها الزمن يوماً واحد تقاءت فيه بحسن المستقبل . ذلك بأن معسكري الأدب والتفكير لم يتصل أحدهما بالآخر مطلق اتصال خلال كل ذلك الزمن الذي نفخر فيه بأننا كوناً نهضة جديدة . فالناحية التي اتصلت بالثقافة القديمة متهمة في عين الناحية الأخرى بالوجود عن ادراك ما في الآداب الحديثة من تصورات ، والناحية التي لم تتصل بالثقافة التقليدية متهمة في عين الناحية الأخرى بالزيغ عن التراث القديم . ومن ثم كان التشاؤم . وما لهذا التشاؤم من سبب إلا أننا لم ندرك السر في عدم اتصال الناحيتين وإنما أدعو هؤلاء لأن يكونوا أكثر تشاؤماً لأنهم بذلك يكونون أدنى الى تفهم الحقيقة كما هي واقعة . ولأضرب لهم مثلاً بشريين اتصالاً بالثقافة الأوربية ، وأوربيين اتصالاً بالثقافة الشرقية ؛ وبالأحرى بالاستأريين منا ، والمستشرقين منهم . لنسأل أي الفريقين استطاع أن يهضم من آداب الآخر أكبر قسط يمكن هضمه ؟ ولنبداً أولاً بالاستأريين منا ولنتخذ ناحية معينة من نواحي الأدب موضوعاً لبحثنا ، كالقصة أو التاريخ مثلاً . أما القصة فقد يقال بأن آدابنا القديمة لم تكن بها العناية الكافية ، وأما لذلك إنما ننقل عن أوروبا أدباً جديداً لا أصل له في ثقافتنا ؛ وإذن ينبغي لنا أن نتخذ التاريخ محكاً للحكم ، وقد ظهر من أوائلنا من كتب فيه أمتع المؤلفات ، سواء أفي التاريخ العام ، أم في تاريخ الأدب . وأنت تعلم فوق ذلك أن فن كتابة التاريخ وتقد الشواهد التاريخية ومقاييس الحكم فيها وروح التفقه التاريخي ، إنما هي خلق جديد من مخلوقات القرن التاسع عشر في أوروبا ؛ وتعلم فوق ذلك أننا اتصلنا بهذا الوجه من الأدب في مدارسنا وجامعاتنا ، وتعلم فوق هذا وذاك أن الأوروبيين قد كتبوا تاريخنا على أوجه انتحيت فيها نظريات اجتماعية أو اقتصادية أو جنسية ، وبخاصة تاريخ العرب والاسلام . وأنت بعد هذا كله تعلم علم اليقين أن كثيراً ممن أرخ للعرب أو الاسلام قد أخطأوا التقدير أو شطوا في الأحكام ، أو أن النظرية التي بنوا عليها توارخهم لم تواتهم بالحقائق التي تلبس ما كتبوا ثوب الافئاع . فهل استطعنا الاقتناع

ولا شك عندي في أن ما يبدو على أدبنا الحديث ، أعن الشيوخ صدر أم عن الشباب ، إنما يرجع الى ضعف علاقتنا بثقافتنا التقليدية . فإن أكثر الذين اتصلوا بهذه الثقافة لم يتصلوا بها اتصال تفهم لروحها ومعناها وأغراضها ومثلها العليا ، وإنما اتصلوا بها اتصال استيعاب لظاهرها دون حقيقتها . وهذا أمر لا سبيل إلى نكرانه . كذلك نلاحظ أن هؤلاء ، على أنهم لم يتصلوا بثقافتنا التقليدية إلا اتصالاً ظاهرياً ، فإنهم عجوزوا عن أن يدركوا روح العصر الذي يعيشون فيه ليكون ذلك عوناً لهم على تلوين ما استوعبوا من آثار ثقافتهم القديمة بلون رضاه أهل هذا الزمن وتقره البيئة التي خلقت من حولها خضوعاً لتطورات العصر نفسه . وهذا أيضاً أمر لا سبيل الى الشك فيه . أضف الى ذلك أن الذين لم يتصلوا بثقافتهم التقليدية ، وعكفوا على الأخذ عن الثقافة الأوربية وحدها ، قد عجوزوا عن أن يخلقوا مما أخذوا عن أوروبا أدباً جديداً له طابع معين ، بحيث يختلف عن الأدب الأوربي على مقتضى ما في الثقافة من روح ومعنوية ، ويختلف أيضاً عن الثقافة القديمة على مقتضى ما تتطلب روح العصر الحديث من فنون وتصورات وأخيلة . ذلك بأن دعوتنا الى الثقافة التقليدية لا ينبغي أن يدرك منها أننا نريد الرجوع الى القديم بذاته ، وأن نحيه ثانية بصفاته التي عرفناها والتي واءمت العصر الذي خلقت فيه ، وإنما نبني بها أن الثقافة التقليدية يجب أن تكون الأصل الذي يلقح بثار الآداب الحديثة ، حتى تقوى على هضم ما يصل إلينا عن أوروبا هضمًا يمكننا من تكييف الآداب الدخيلة تكييفاً بلائم وراثتنا العديدة . وبعبارة أخرى نقول إن ثقافتنا القديمة هي المزدرع الذي تلقى فيه يندور الأدب الحديث ، فما عاش منه فيه فذلك ما نكون قد هضمنا ومثلنا ، ومنه نخرج الأدب الجديد الملائم لطبائعتنا وميولها وتصوراتنا وأخيلتنا ، وما مات في ذلك المزدرع من الآداب الحديثة فذلك ما يمدد عن طبعنا ولا حاجة لنا به . وعلى الجملة نقول إن ثقافتنا التقليدية هي بمثابة حقل التجارب الذي يمتحن فيه المجرّبون قوة البذور الدخيلة على الأنبات والحياة . وما السبب الصحيح في كثرة ما تقع عليه في أدبنا المنقول من الآثار الميتة إلا أننا لم نمتحن فيما نقلنا قوة الاستمرار والبقاء في بيئة جديدة . تلك البيئة التي يجب أن تكون من عناصر تستمد من ثقافتنا التقليدية أول شيء

من ثقافته التقليدية . وإني لواتق أن هذه المقارنة سوف تجمل الذين يجنحون إلى إرضاء ناحية العزة والأنفة في أنفسهم يخففون شيئاً من غلوهم ، وتنزع بالذين لا يتشائمون من أدبنا الحديث . فقدر يحلمهم يرون الحقائق كما هي واقعة ، إلى درجة من التشاؤم تنير أمامهم السبيل

لقد بدأت نهضتنا الأدبية الحديثة بالدفاع نحو الآداب العالمية ، واستمداد من وحى أوروبا الجديدة ؛ ولولنا تذرنا مع الاتجاه الجديد بركيزة تقوم على ثقافتنا التقليدية ووراثتنا المختلفة ، إذن لكان لنا أن نقول إننا أخذنا نشيد بناء ثابتاً على أساس مستمد من فطرتنا . أما وإننا لم نكن العناية الواجبة بماضيها ، فأهملنا أسر اللغة حتى خرج الثعلمون من أبنائنا وأكثروا بجهل القواعد الأولية من لغة العرب ؛ ونبذنا آداب العربية ، حتى نشأ الجيل الحاضر بعيداً عن استذواق الأدب العربي والوقوف على أسرارها ، فإن دفعتنا الأولى نحو الزود من الآداب العالمية الجديدة هي التي أحدثت ذلك الركب الشديد الذي يتجلى الآن في هجز أدباء الشباب عن خلق صورة من الأدب فيها من قوة الحياة ما يجعلها خليفة بأن تصبح عنواناً على روح العصر الذي نبش فيه

على أننا لا يجب أن ننسى في هذا البحث أن نشير إلى علاقة الآداب من الناحية العلمية بطبيعة الأرض والاقليم والمناخ من حيث أنها بيئة طبيعية ، كما أننا لم ننس أن نشير إلى اللغة والآداب القديمة والتاريخ والأساطير والحالات الاجتماعية من حيث أنها بيئة عقلية . أما العلاقة بين البيئتين فينبغي لا سبيل إلى إنكارها ، أو نكون قد أنكرنا أخص العلاقات التي تفرضها الطبيعة فرضاً على الأحياء وتصبغ بها طبائعهم وأخلاقهم وميولهم وأخيلتهم ، وعلى الجملة جماع ما فيهم من الصفات العقلية والنفسية . وإلى جانب هذا ينبغي لنا أن نضع في ميزان الحكم والتقدير عند النظر في مثل هذه العلاقات أن الآداب التي أنشأتها شعوب قديمة إنما هي بنت البيئة وريبة الوسط ، بل إنها خلاصة الطبع وعصارة النفس ؛ وإنما تتشكل هذه الآداب بعقليات المصور ، وتنشأ بتكيف يحكم ما يستجمع العقل من مختلف التصورات . أما الروح التي تظهر متجلية في هذه الآداب ، فذلك ما لا سلطان

بهذا الوجه الجديد من أوجه الأدب ؟ هل ألفنا في تاريخنا كتباً قامت على نظريات جديدة تتصل بالثقافة الحديثة أو بفروع منها بحيث تبين لنا عن الاتجاهات الفكرية والتصويرية التي اختضت وراء الحوادث الظاهرة ، وصححنا بذلك الأخطاء التي وصلها بعض الكتاب بماضيها ؟ كلا وكفى

ولند بعد ذلك إلى المستشرقين منهم ، وننتحن في ضوء العقل والاعتزان الآثار التي صدرت عنهم متصلة بثقافتنا القديمة ، ونعني بالمستشرقين كل من اتصل بالشرق سواء أكان ذلك من طريق اللغة أم من طريق الدرس باللغات التي نقلت إليها آثارنا القديمة . أما إذا اتجهنا ذلك الاتجاه فإن أول ما نلاحظ في الآثار التي صدرت عنهم عكوفهم فيها على أسلوب البحث العلمي وهو أسلوب يتلقونه في معاهدهم وتلازمهم آثاره بعد ذلك . فهم يكتبون التاريخ بأسلوب البحث العلمي ، ويكتبون الأدب بأسلوب البحث العلمي ، ويتكلمون بأسلوب البحث العلمي ؛ وهو أسلوب أخص ما امتازت به ثقافتهم التقليدية . ثم نلاحظ بعد ذلك أثر البحث الأكاديمي من حيث الأكاب على الفهم العميق لأشياء قد تلوح أول شيء تافهة غير جديرة بالبحث ولا هي خليفة بالدرس ، ومقارنتها بمجموع الحقائق التي تتعلق بها . وهو أسلوب من البحث عاش بين جدران الأزهر أزماناً ، وكاد الأزهر يفقده الآن مع الأسف ، مع ما فقيدنا من تقاليدنا القديمة . وتشهد بعد ذلك في آثارهم ما تنفي الأناة والصبر والاستقلال في الرأي على الآثار العلمية من مظاهر الروعة والجلال . هذا إلى المظهر العام الذي يلبس ما يؤمنون من جماع هذه الأشياء . وبذلك استطاع هؤلاء المستشرقون أن يهضموا ما أخذوا عن الشرق ليخرج من بين أيديهم لباساً صورة أوربية رسيصة . ولقد يخطئون ، ولقد يشطأ أكثرهم أكبر الشطط ، ولكنه خطأ واشتطاط تلابسه روح البحث والدرس ، ويحوطه الأسلوب الأكاديمي بروعة البحوث العلمية

وبعد . فما هو السبب في الفقرة بين مستأرب عاجز عن كتابة تاريخه بروح جديدة ، ومستشرق يكتب تاريخ غيره بروح مستمدة من طبعه ؟ السبب أن الأول بعيد عن ثقافته التقليدية التي يتخذ منها مادة للدرس والبحث والاستنتاج والصياغة ، وأن الثاني يكتب تاريخ غيره مستهدباً بفطرة مستمدة